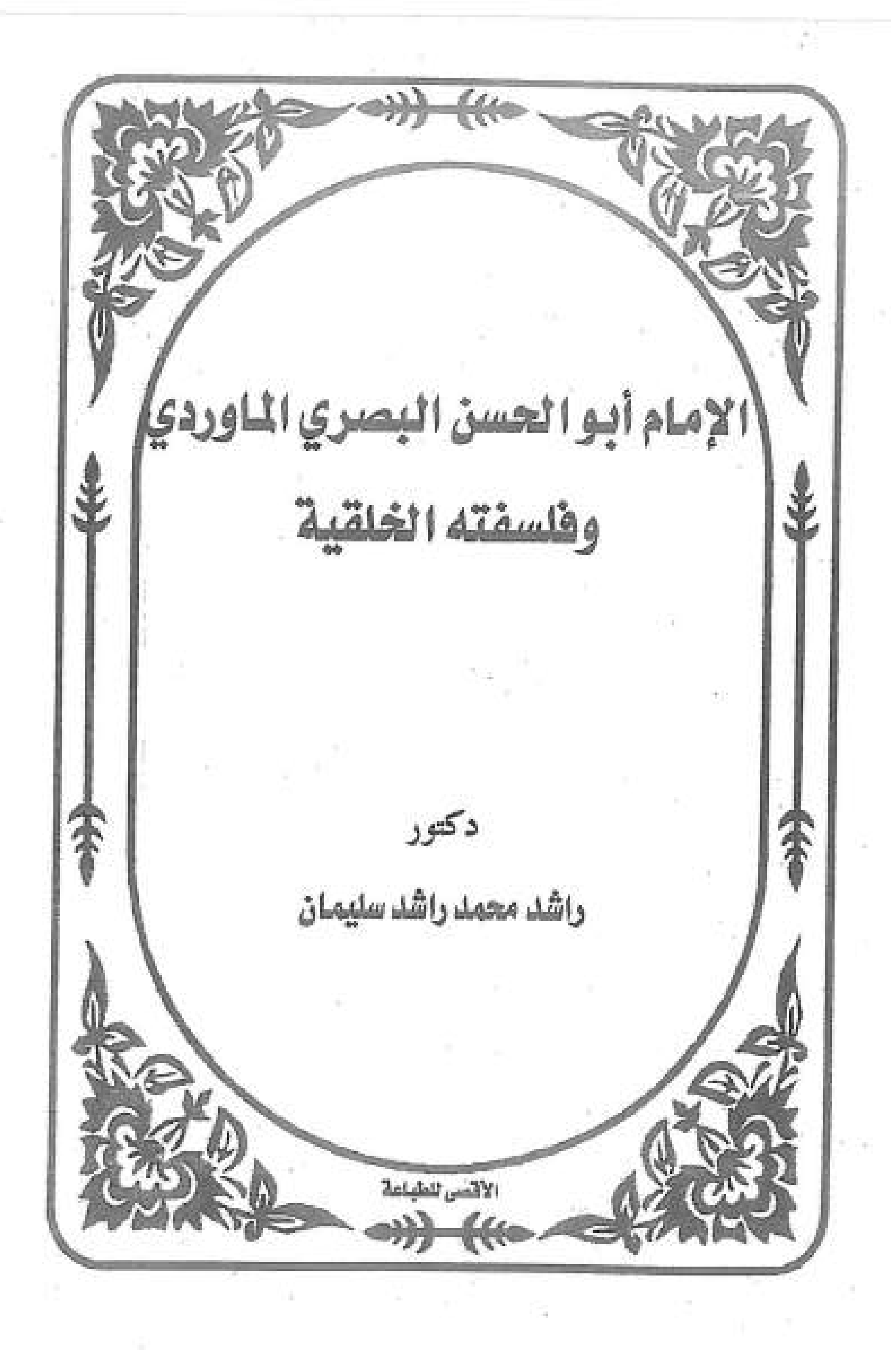


الإمام أبو الحسن البصري الماوردي
وفلسفته الخلقية

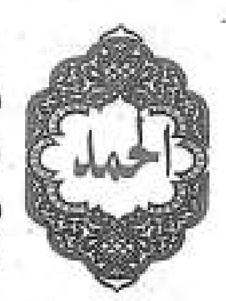
دكتور

راشد محمد راشد سليمان

الأقصى للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه :



لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الخُلق العظيم ، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ثم أما بعد .

فلقد احتل الإمام الماوردي مكاناً بارزاً بين العلماء ومكانة رفيعة بين الفقهاء . في كافة مجالات الحياة وميادينها ، وكان يشار إليه بالبنان ولا سيما في ميدان الفكر السياسي والإداري حيث لم يترك جانباً من إدارة شئون الدولة ورعاية أفراد الجماعة الإنسانية إلا ورعاه وعالجه ووفاه حقه . وإلى جانب هذه الجهود المضنية نجده قد احتل مكانة عالية في الميدان الأخلاقي وبدا ذلك جلياً في نتاجه الفكري ولا أحد ينكر هذا الجهد ولا أن يغض الطرف عنه ، حيث إنه كان يعلم أن تقدم الأمة الإسلامية مرهون بالتمسك بأخلاقها وأن الأمة الإسلامية ما خارت قواها وذهب ريحها إلا حينما تركت أخلاقها وصارت تنشد الهدى في غير ما أنزل الله .

ولما كانت للأخلاق هذه المنزلة الرفيعة والتي تحافظ به الأمة على كيانها ووجودها وذلك يتطلب العمل بعد النظر حيث إن الوقوف على جانب واحد لا يفيد ، فضلاً عن زيادة ضرره وعظيم أثره لذا يجب الاهتمام بالجانب النظري لأنه الأساس الذي يقوم عليه البناء وكذا الاهتمام بالجانب العلمي لأنه لا فائدة لأساس ليس عليه بناء لذا كان اهتمام الإمام الماوردي بالجانبين معاً ، جانب النظر (العلم) ، وجانب التطبيق (العمل) ، حتى يتم النفع وتعم الفضيلة ويتقدم المجتمع وتكون السعادة في الدارين لذلك أردت أن يكون هذا البحث تحت عنوان (الإمام الماوردي وفلسفته الأخلاقية) ولقد دفعني لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب من أهمها :

١- إن الإمام الماوردي بما له من مكانة عظيمة رفيعة لم ينل حظه من الدراسة والبحث كما نال غيره ومنهم من هو أقل منه قدراً وأدنى منزلة .

٢- إن الإمام الماوردي متهم في عقيدته عند بعض العلماء بينما عند الآخرين ثقة وحافظاً ومحدثاً ومفسراً وأقضى القضاة .

٣- إن الدارسين الذين تناولوا فكر الماوردي بالدراسة والبحث قصروا جهده على الجانب السياسي والإداري غاضين الطرف عن فكره الأخلاقي وجانبه التربوي مع تيقنهم أن سياسة الإنسان لنفسه مقدم على سياسته لمجتمعه وأن السياسي الناجح هو الذي يسوس مجتمعه بل إن الأولى أساس الثانية .

٤- إن الإمام الماوردي قد ربط بين العلم والعمل بين النظرية والتطبيق في مجالات البحث عموماً ولا سيما في المجال الأخلاقي . لذا فهو يختلف عن غيره ممن اقتصر على جانب واحد وأولاه العناية غاضاً الطرف عن الآخر .

٥- إن الإمام الماوردي في فلسفته الخلقية قد تعرض لأمهات المسائل النظرية المتعلقة بالجانب الخلقي وهو مع ذلك يقال عنه إنه صاحب فلسفة عملية وينفون عنه أصالته في الجانب النظري . وماذا يفيد النظر أن لم يتوج بعمل .

أما عن المنهج الذي اتبعته في معالجتي لمسائل هذا البحث فيتمثل في المنهج الاستردادي والاستقرائي والاستنباطي حيث إن الاعتماد على نوع واحد من هذه المناهج أمر عسير التحقيق والتطبيق كما أنه لا يتفق وطبيعة البحث العلمي في هذا الموضوع ومن ثم لا يحقق الغاية المنشودة من هذه الدراسة .

أما عن الخطوات الطبيعية لهذا المنهج فإنها تتمثل في مراعاة أطرف النسبة في العنوان ومن ثم جاءت على النحو التالي :

١- قمت بتقسيم القضية - المراد بحثها - إلى جزئياتها الأصلية ثم تناولت بالدراسة والتحليل كل جزئية على حدة .

٢- كنت لا أذكر رأياً لعالم أو فيلسوف - من خلال ما كتب عنه - بل كنت أتحرى الدقة في الرجوع إلى ما كتبه العالم أو الفيلسوف نفسه من خلال كتبه أو رسائله - كلما وسعني ذلك - أو من خلال ما كتبه تلاميذه عنه : أو ما كتبه المعاصرون بشرط إلا يخالفه في المذهب .

٣- كنت أقارن بين آراء العالم أو الفيلسوف بعضها بعضاً إذا كان له أكثر من رأي في المسألة الواحدة وأرجح ما أراه مدعماً ذلك بالحجة والدليل .

٤- في كثير من مسائل البحث قمت بالمقارنة بين ما ذكره الإمام الماوردي وما ذكره القرآن الكريم وليس ذلك رفعاً للماوردي ولا حطاً من مكانة القرآن الكريم بل لكي أبين الوسطية التي دعا إليها القرآن والتي جنح إليها الماوردي إذ هي تختلف عن الوسطية النظرية التي دعا إليها أصحاب الفلسفات النظرية - قديماً وحديثاً - .

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة :

أما عن المقدمة فقد اشتملت على أهمية الموضوع وأسباب اختياره ومنهج الباحث وخطة البحث .

والمبحث الأول كان بعنوان **الإمام الماوردي حياته وعصره وآثاره العلمية** . تناولت فيه التعريف بالإمام الماوردي فبينت نسبه ومولده ولقبه وكنيته وطفولته وتعلمه ورحلته في طلب العلم وناقشت فيه اتهام الشهرزوري له وبينت أن إجماع علماء عصره يناقض ما ذهب إليه الشهرزوري ، كما ألقيت الضوء على عصره الذي عاش فيه ثم تحدثت عن مكانته وآثاره العلمية .

أما المبحث الثاني فكان بعنوان **فلسفة الماوردي الخلقية** . وقد مهدت له بالتعريف بفلسفة الأخلاق وبينت السبب في عدم تفرد الكتابة فيه في صدر الإسلام ثم عرفت الخلق لغة واصطلاحاً ثم كانت الوقفة مع الإمام الماوردي لبيان معرفة موقفه من أمهات المسائل الأخلاقية كمسألة الخير والشر والإنسان الفاضل وحرية الإرادة وارتباطها بالأخلاق والعقل المكتسب والعقل الغريزي ثم بينت موقفه من أمهات الأخلاق العملية والتي لها بالغ الأثر على الأفراد

والمجتمعات ألا وهي – الحلم ، الحياء ، الصدق – وكيف عالج مثل هذه المسائل .

أما الخاتمة : فقد تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها الباحث في بحثه وأهم التوصيات والاقتراحات .

والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل

وصلي اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

الباحث

راشد محمد راشد سليمان

المبحث الأول

الماوردي

(حياته وعصره وآثاره)

الماوردي علم من أعلام الفكر الإسلامي ، وفقيه حافظ من أكبر فقهاء الشافعية ، ورجل من أبرز رجال السياسة في الدولة العباسية ، وأديب ناضج الفكر واضح الأسلوب ، ورث المسلمين العديد من التأليف الممتازة في شتى فروع الحضارة الإسلامية ، وامتدت حياته بين سنتي (٣٦٤ – ٤٥٠هـ) وقد عاصر الثقافة الإسلامية في أزهى عصورها حين بلغت الدولة العباسية درجة عالية من الرقي العلمي وظهر فيها كثير من العلماء البارعين الذين جمعوا ثمار الحضارات المختلفة ومزجوا بين العناصر الإسلامية وما صار إلى المسلمين من تراث الأمم القديمة ولذا عرف الماوردي في كتب التراجم بأنه هو (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري الشافعي الشهير بالماوردي من وجوه فقهاء الشافعية إمام في الفقه والأصول والتفسير واللغة ومن من رجال السياسة المشهورين في الدولة العباسية) (١) .

وقد أجمع أصحاب التراجم على كنيته بأبي الحسن ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا ابن الأثير حيث قال في أحداث سنة خمسين وأربعمائة ما نصه (وفي سلخة (ربيع الأول) توفي قاضي القضاة أبو الحسين على بن محمد بن حبيب الماوردي الفقيه الشافعي وكان إماماً وله تصانيف كثيرة) (٢) . ولعل ذلك الخطأ من الكتبة أو ظناً منه حيث إن الخطيب البغدادي وهو مؤرخ ثقة وكان

---

(١) طبقات الشافعية : للإمام أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوي المعروف بابن الصلاح ، جـ٢ ، ص٦٣٦ ط أولى سنة ١٤١٣هـ – سنة ١٩٩٢م ، دار البشاير ، الإسلامية ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي جـ٣ ، ص٢٨٦ ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بدون تاريخ .

(٢) الكامل في التاريخ : للعلامة بن الأثير الجوزي ، ص٨٦ – جـ٨ ، دار الفكر – بيروت – سنة ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .

معاصراً له كناه بأبي الحسن [1] ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا بن الأثير كما أجمع أصحاب التراجم على تلقيبه بالماوردي نسبة إلى بيع ماء الورد يقول صاحب وفيات الأعيان (والماوردي نسبة إلى بيع الماورد وهكذا قال الحافظ بن السمعاني) [2] أما عن تاريخ ولادته فلم يذكرها أحد من القدامى وما ذكره المحدثون فهو من طريق الحساب حيث إن القدامى أجمعوا على أن وفاة الماوردي كانت سنة خمسين وأربعمائة هجرية عن ست وثمانين سنة فعلى هذا يكون ميلاده حوالي سنة ٣٦٤ هـ استنتاجاً .

ولقد ولد الماوردي بالبصرة وترعرع فيها وتلقى أوائل علومه في فترة الصبا ومعنى هذا أنه قضى شطراً من حياته فيها ووضع البذرة الصالحة لتعليمه فيها وهي إحدى العواصم الفكرية المشهورة والذائعة الصيت في ذلك الوقت ثم رحل إلى بغداد ليتم تعليمه هناك وتتلمذ على شيوخها وأساتذتها المشهورين آنذاك وفي أثناء ذلك لم ينفصل عن عصره إطلاقاً بل كان يتحسس وينفعل بما حوله من صراعات سياسية ومذهبية وفكرية مما أثر على تفكيره واجتهاده .

واختير الرجل لتولي القضاء في بلدان كثيرة وبعد رحلاته وجولاته عاد إلى بغداد ليقوم بالتدريس فيها عدة سنين وفيها حدث وفسر القرآن وألف كتباً ، كما شارك الرجل في السياسة ولعب دوراً مهماً فيها حيث اختاره الخليفة العباسي سفيراً بينه وبين بني بويه وبين السلاجقة فشارك السلطة حل الأزمات وما ذلك إلا عن رجاحة عقل ونضج فكر وحرصاً منه على تأمين الخليفة ورعيته وصيانة لأموالهم وممتلكاتهم وحياتهم[3].

---

(١) تاريخ بغداد : للحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، ص١٠٢ – ١٠٣ ، المجلد الثالث عشر ، المكتبة السلفية .

(٢) وفيات الأعيان : لابن خلكان ، ص٢٨٤ ، المجلد الثالث ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ، بدون تاريخ .

(٣) الأعلام : للعلامة خير الدين الزركلي ، ج٤ – ص ٢٢٧ ، دار العلم للملايين .

ولقد أثنى عليه العلماء ثناءاً حسناً بما هو له أهل حيث قال عنه الخطيب البغدادي وقد كان معاصراً له (كان من وجوه الفقهاء الشافعين وله تصانيف عدة في أصول الفقه وفروعه وفي غير ذلك وجعل إليه ولاية القضاء ببلدان كثيرة ...)[١].

ويقول عنه صاحب وفيات الأعيان (كان من وجوه الفقهاء الشافعية ومن كبارهم ... وكان حافظاً للمذهب وله فيه كتاب الحاوي الذي لم يطالعه أحد إلا وشهد له بالتبحر والمعرفة التامة بالمذهب وفوض إليه القضاء ببلدان كثيرة ...)[٢].

ويقول عنه صاحب طبقات الفقهاء الشافعية (أقضى القضاة أبو الحسن الماوردي البصري صاحب الحاوي رحمه الله . . . وقال ابن خيرون كان رجلاً جليلاً عظيم القدر متقدماً عند السلطان أحد الأئمة له التصانيف الحسان في كل نوع من أنواع العلوم ...)[٣].

ويقول عنه تاج الدين السبكي (على بن محمد بن حبيب الإمام الجليل القدر الرفيع المقدار والشأن أبو الحسن المعروف بالماوردي كان إماماً جليلاً له اليد الباسطة في المذهب والتفنن التام في سائر العلوم ...)[٤].

كما يجمع المؤرخون على اتصافه بمكارم الأخلاق والشجاعة الأدبية في الحق فياقوت الحموي يروي عن عبد الملك الهمذاني تلميذ الماوردي قوله (لم أر أوقر منه ولم أسمع منه مضحكة قط ولا رأيت ذراعه منذ صحبته إلى أن فارق الدنيا . ويقول ابن خيرون تلميذه أيضاً عنه : كان رجلاً عظيم القدر . ويقول عنه ابن الجوزي وكان وقوراً متأدباً وكان ثقة صالحاً)[٥].

---

(١) تاريخ بغداد : للإمام أبو بكر الخطيب البغدادي ، جـ ١٢ – ص ١٠٢ .
(٢) وفيات الأعيان : لأبن خلكان ، جـ٣ – ص ٢٨٢.
(٣) طبقات الفقهاء الشافعية : لأبن الصلاح الشهرزوري ، جـ٢ – ص٦٣٦ .
(٤) طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٣ – ص٣٠٣ ، بدون تاريخ – القاهرة .
(٥) معجم الأدباء : لياقوت الحموي ، جـ٥ – جـ٥٤ ، دار الفكر – ط٣ . ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠م .

ومما يـدل على شـجاعته في الحـق ما يرويه ابن الجوزي عن حوادث سنة ٤٢٩ حيث يقول (وفي رمضان استقر أن يزداد في ألقاب جلال الدولة شاهان شاه الأعظم ملك الملوك فأمر الخليفة بذلك فخطب له به فنفر العامة ورموا الخطباء بالأجر ووقعت فتن وكتب إلى الفقهاء في ذلك ويذكر ابن الجوزي موافقة الفقيه الحنفي (الصيمري) وكذلك موافقة أبي الطيب الطبري والتميمي وغيرهم على هذه التسمية أما الماوردي فقد منع من جواز ذلك وكان مختصاً بخدمة جلال الدولة فلما امتنع عن الكتابة انقطع عن خدمته واستدعاه جلال الدولة بكرة يوم العيد فمضى على وجل شديد يتوقع المكروه فلما دخل على الملك قال له : أنا أتحقق أنك لو حابيت أحداً لحابيتني لما بيني وبينك من كونك أكثر الفقهاء مالاً وأولاهم جاهاً وحالاً وما حملك على مخالفتي إلا الدين وقد قربك ذلك مني وزاد محلك في قلبي وقدمتك على نظائرك عندي ..)[1].

ومما يدل على شجاعته العلمية وتواضعه الشديد ونقده الذاتي لنفسه ما يرويه هو عن نفسه حيث يقول (ومما أنذرك به من حالي أنني صنعت في البيوع كتاباً جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس وأجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري حتى إذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعاً بعمله حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان فسألاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جوابا فأطرقت مفكراً وبحالي وحالهما معتبراً . فقالا ما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة ؟ فقلت لهما : لا ، (فقالا) وأها لك وانصرفا ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي فسألاه فأجابهما مسرعاً بما أقنعهما وانصرفا عنه راضين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكاً وبحالهما وحالي معتبراً وأني لعلى ما كنت عليه في تلك المسائل إلى وقتي فكان ذلك زاجراً نصيحة ونذير عظة تذلل بها قياد النفس وانخفض بها جناح العجب توفيقاً منحـته ورشداً أوتيته)[2].

---

(١) أدب الدنيا والدين : لأبي الحسن الماوردي ، ص٥٩ ،المكتبة التوفيقية – بدون تاريخ .

(٢) أدب الدنيا والدين : لأبي الحسن الماوردي ، ص٥٩ ،المكتبة التوفيقية – بدون تاريخ .

ومن ابرز ما وصف به الماوردي من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ما قاله الشيخ محمد أبو زهرة (ومن أخلاق الماوردي أنه كان صدوقاً في نفسه وأعماله صريحاً في الحق لا يحابي أحداً فيه وكان في هذا قوياً مع غيره – ولو كان الشخص رئيس الدولة – وكان متواضعاً مجاهداً لنفسه كابحاً لجماحها ولقد اتصف بصفات جعلته في الذروة بين رجال العلم عبر التاريخ الإسلامي وأول هذه الصفات : ذاكرة واعية ، وبديهة حاضرة ، وعقل مستقيم ، والثانية : اتزان في القول والعمل والثالثة : الحلم وضبط النفس ، والرابعة : التواضع وإبعاد النفس عن الغرور وكان حيياً شديد الحياء وفيه وقار وهيبة، والخامسة : الإخلاص)[1].

ومع ما أجمع عليه علماء عصره ومن أتى بعدهم والذين شهدوا له بالفضل والتحلي بمكارم الأخلاق وكونه ثقة غير متهم في عقيدته نجد أن الإمام الشهرزوي المعروف بابن الصلاح يتهمه في عقيدته ويصف تفسيره بأنه عظيم الضرر وأنه مليء بالتلبيس والتدليس وللأسف الشديد نجد أن بعض المترجمين بعده يرددون مقالته [2] : يقول ابن الصلاح (هذا الماوردي عفا الله عنه يتهم بالاعتزال وقد كنت لا أحقق ذلك عليه وأتأول له وأعتذر عنه في كونه يورد في تفسيره في الآيات التي يختلف فيها تفسير أهل السنة وتفسير المعتزلة وجوها يسردها يمزح فيها أقاويلهم من غير تعرض منه لبيان ما هو الحق منها ، فأقول لعل قصده إيراد كل ما قيل من حق وباطل ولهذا يورد من أقاويل المشبهة أشياء مثل هذا الإيراد ، حتى وجدته يختار في بعض المواضع قول المعتزلة وما بنوه على أصولهم الفاسدة ومن ذلك مصيره في سورة الأعراف أن الله سبحانه وتعالى لا يشاء عبادة الأوثان .وقال في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ (سورة الأنعام ١١٢) في قوله تعالى (جعلنا) وجهان أحدهما معناه حكمنا بأنهم أعداء والثاني تركناهم على العداوة فلم نمنعهم منها ،

---

(١) أبو الحسن البصري الماوردي : للشيخ محمد أبو زهرة ، مجلة العربي – الكويت ، العدد ٧٦ مارس ١٩٦٥ ص٣٢ .

(٢) شذرات الذهب : لابن العماد الحنبلي ، جـ٣ – ص٢٨٦ ، سير أعلام النبلاء – للذهبي جـ١٨ ، ص٦٦ ، ميزان الاعتدال ، جـ٣ ، ص١٥٥ .

وتفسيره عظيم الضرر لكونه مشحوناً بكثير من تأويلات أهل الباطل تدسيساً وتلبيساً على وجه لا يفطن لتمييزها غير أهل العلم والتحقيق مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة حتى يحذر وهو يجتهد في كتمان موافقته لهم فيما هو لهم فيه موافق . ثم ليس هو معتزلياً مطلقاً فإنه لا يوافقهم في جميع أصولهم مثل خلق القرآن ويوافقهم في القدر وهي البلية التي غلبت على البصريين وعنوا بها قديما وقال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر٤٩) يعني بحكم سابق ، ومما يوافق الماوردي فيه أهل السنة ويخالف المعتزلة خلق الجنة ، فيقول إنها مخلوقة كما قال أهل السنة ، قال في سورة الأعراف الجنة التي أمر آدم بسكناها ، جنة الخلد) [١].

ويمكن إجمال ما ذكره الإمام ابن الصلاح في النقاط التالية :

أولاً : إن الاعتزال تهمة اتصف بها الماوردي وهو يجتهد في كتمانها .

ثانياً : أنه يوافق المعتزلة في بعض أصولهم ويخالفهم في البعض ، فما يوافق فيه المعتزلة القول بالقدر ومما يخالفهم فيه خلق القرآن .

ثالثاً : أنه يوافق أهل السنة في خلق الجنة وأن الجنة التي كان يسكنها آدم هي جنة الخلد .

وقبل مناقشة هذه القضايا الثلاث أود أن أشير إلى أن هناك من القدامى من نفي هذه التهمة – عند من يراها – عن الماوردي : فهذا هو العلامة ابن حجر العسقلاني يقول في لسان الميزان ما نصه (ولا ينبغي أن يطلق عليه اسم الاعتزال) [٢] .

ويقول عنه الخطيب البغدادي الذي كان معاصراً له وأخبر به من غيره (وكتبت عنه وكان ثقة ...)[٣] .

---

(١) طبقات الفقهاء الشافعية : للإمام أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوي – المعروف بابن الصلاح جـ٢ ، ص ٦٣٦ .
(٢) لسان الميزان : لابن حجر العسقلاني ، جـ١٢ ، ص١٠٣ .
(٣) تاريخ بغداد : للحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، جـ١٢ ، ص١٠٣ .

وقال عنه تلميذه أبو الفضل ابن خيرون (كان رجلاً عظيم القدر متقدماً عند السلطان أحد الأئمة له التصانيف الحسان في كل فن)[1].

ويحدثنا ابن خلكان عن شدة ورعه وإخلاص نيته لله فيقول (وقيل أنه لم يظهر شيئاً من تصنيفاته في حياته فلما دنت وفاته قال لشخص يثق إليه : الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي وإني لم أظهرها لأني لم أجد نية خالصة لله تعالى لم يشبها كدر فإن عاينت الموت ووقعت في النزع فاجعل يدك في يدي فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها فاعمد إلى الكتب وألقها في دجلة ليلاً وإن بسط يدي ولم أقبض عليها فاعلم أنها قبلت وأني قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية الخالصة ، قال ذلك الشخص : فلما قارب الموت وضعت يدي في يده فبسطها ولم يقبض على يدي فعلمت أنها علامة القبول فأظهرت كتبه بعده) [2] .

أما عن ما وصفه به الإمام ابن الصلاح من أمور ثلاثة فسوف أناقش كل أمر على حده :

فبالنسبة للأمر الأول : من كونه اتهم بالاعتزال وكان يجتهد في كتمانه ، فهذا يشمل أمران ، أولهما : أن الاعتزال تهمة اتهم بها الماوردي ، ثانيهما : أن الماوردي كان يجتهد في كتمان ذلك الأمر .

فبالنسبة للمسألة الأولى : أن الاعتزال تهمة فليس ذلك بحق فالمعروف عن المعتزلة أنهم لم يقفوا عند حدود الأوامر والنواهي وإنما اجتهدوا في تقرير الأخلاق ووزنوا الفضائل والرذائل بمقياس الزمان والبيئة وقالوا بسلطان عقل الإنسان وإرادته وتحررهما من سلطان القدر كما أن المعتزلة كانت أقدر فرق المسلمين على الدفاع عن الإسلام تجاه التحديات فالخوارج كانوا في شغل عن تلك المهمة بالحرب المتصلة كما أن الشيعة كانوا في شغل باتقاء اضطهاد الأمويين وتجسيد أحزانهم ومأساتهم كي تتحول إلى رباط روحي وعاطفي كما

(١) سير أعلام النبلاء : للإمام الذهبي جـ١٨ ، ص٦٧ .
(٢) وفيات الأعيان : لابن خلكان ، المجلد الثالث – ص٢٨٢ – ٢٨٣ .

شغلوا بنظريتهم في الإمامة ، والمرجئة والجبرية الأموية كانوا أهل حشو يقفون عند ظواهر النصوص ومن ثم فلا جلد لهم ولا قدرة على جدل خصوم الإسلام بمنطق العقل وحكمة الفلسفة ، أما المعتزلة فقد كانوا هم الفرقة الإسلامية التي تصدت للدفاع عن الإسلام ضد خصومه بل واتخذت موقع الهجوم على هؤلاء الخصوم (١).

إلا أن الاعتزال صار من التهم التي وجهها المحدثون لكل عالم متحرر يحكم العقل فيما أمامه من قضايا .

أما عن اتهام الماوردي بالاعتزال فهو اتهام باطل مرجعه اجتهاد الماوردي وهو اجتهاد يقوم على أساس تحكيم العقل فالتشابه بين المعتزلة والماوردي مرجعه أن كلاً منهما قرر سلطان العقل في أن يبحث مسائل الدين الأمر الذي أوجد تشابها في بعض آراء الماوردي – لا كلها – وبعض آراء المعتزلة ويؤيد ذلك ابن الصلاح بنفسه .

أما فيما يتعلق بالمسألة الثانية : وهي أن الماوردي كان يجتهد في كتمان اعتزاله فليس ذلك بحق أيضاً حيث إن واقع العصر الذي عاش فيه الماوردي يرد هذا الاتهام ذلك أن الإمام الماوردي قد عاش في كنف الدولة البويهية وقد كانت تعتنق المذهب الشيعي وقد كان قسم كبير من المعتزلة شيعياً مما جعل الدولة تفسح صدرها للمعتزلة فلو كان الإمام الماوردي اعتزالياً لما تحرج من الجهر بذلك خاصة وقد نال مكانة عظيمة عند أمرائها وقد ثبت مخالفته لهم في الرأي وعدم موافقته على الزيادة في ألقاب الملك بـــ (شاهنشاه) مع خدمته له ومكانته عنده .

الأمر الثاني : أما فيما يتعلق بموافقة الماوردي للمعتزلة في أن الله لا يشاء الكفر لعباده وموافقته لهم في تفسيره لآية الأنعام وللقول بالقدر : فهنا ثلاث مسائل المسألة الأولى أوردها الماوردي عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا

---

(١) تيارات الفكر الإسلامي : للدكتور محمد عمارة ص٧٣ ، دار الشروق : الثانية ، ١٤١٨هـــ - ١٩٩٧م .

أن نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ (الأعراف :٨٩) حيث يقول : فإن قيل فالله تعالى لا يشاء عبادة الأوثان فما وجه هذا القول من شعيب ، فالجواب عنه من ثلاثة أوجه) [١] . فإن ما ذهب إليه هو بحكم اجتهاده هو والتي وافق فيها تلك الأقوال وهذا لا يعني بالضرورة أنه تمذهب بمذهبهم وأنه صار منهم لأجل ما قال به ووافقهم فيه وهو ما أشار إليه الحافظ بن حجر حيث يقول (فقد وافق اجتهاده فيه مقالات المعتزلة) [٢] .

المسألة الثانية : الخاصة بتفسيره لقوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً ﴾ (الأنعام ١١٢) فإن ما ذكره الماوردي وما نقله عنه ابن الصلاح أعم وأشمل مما ذكره المعتزلة فلقد ذكر الزمخشري وجهاً واحداً لتفسير جعلنا حيث يقول (وكما خلينا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم لم نمنعهم من العداوة لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات) [٣] . على حين أن محل الشبهة – عند من يراها – في قوله:﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ وعلى هذا فالإمام الماوردي شأنه في ذلك شأن من اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ والله أعلم .

المسألة الثالثة : اتهامه بأنه قدري ويستدل على ذلك بتفسير للآية رقم (٤٩) القمر والحقيقة أن النص الذي أورده ابن الصلاح مبتور لما يوافق هواه وتفسير الآية هي : إنا كل شيء خلقناه بقدر ، وروي اسماعيل بن زياد عن محمد ابن عباد عن أبي هريرة أن مشركي قريش أتوا النبي (ﷺ) يخاصمونه في القدر فنزلت ، إنا كل شيء خلقناه بقدر فيها وجهان ، أحدهما على قدر ما أردنا

---

(١) النكت والعيون : للإمام الماوردي ، جـ٢ – ص٢٤٠ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، بدون تاريخ .
(٢) تعليق محقق النكت والعيون : السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم ، هامش ص٤٣٦ – جـ٥ .
(٣) تفسير الكشاف : للإمام الزمخشري ، المجلد الثاني ، ص٥٦ ، دار الكتب العلمية ، طأولى ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م.

من غيره زيادة ولا نقصان قاله ابن بحر ، والثاني بحكم سابق وقضاء محتوم ومنه قول الراجز وقدر مقدور الأقدار) (١) .

فالإمام الماوردي بين سبب نزول الآية واستدل على ذلك بالحديث الذي رواه مسلم والترمذي كما بين أن هناك وجهان في الآية ولم يقف عند وجه واحد كما قال ابن الصلاح ثم إن ما ذكره الإمام الماوردي هو بعينه ما ذهب إليه أهل السنة في تفسيرهم للآية (٢) ، فأين هذا من قول ابن الصلاح ؟

الأمر الثالث موافقته لأهل السنة في خلق الجنة ومن أن الجنة التي كان يسكنها آدم جنة الخلد وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، فلقد وافق اجتهاد الماوردي أهل السنة في هذه المسائل وغيرها . فالبنسبة للقرآن يقول الماوردي عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢) التنزيل مبتدأ التلاوة لنزوله سورة بعد سورة وآية بعد آية كما كان ينزله الله عليه في وقت بعد وقت (٣) ويقول السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم (وهذا التفسير من الإمام الماوردي يدل على أنه لم يكن معتزليا كما قال بعضهم فقد تابع المؤلف هنا أهل السنة والجماعة وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق) (٤) .

أما ما يتعلق بخلق الجنة والنار فلقد ذهب الإمام الماوردي إلى أنهما مخلوقتان مخالفاً بذلك المعتزلة الذين ذهبوا إلى أنهما ليستا بمخلوقتين الآن (٥) ، يقول الماوردي عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة : ٣٥) واختلف في الجنة التي أسكناها على قولين أحدهما أنها جنة الخلد

---

(١) النكت والعيون : للإمام الماوردي ، جـ٥ ، ص٤٢٠ .
(٢) انظر تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، جـ٩ ، ص١٠٨ – ١٠٩ ، دار الفكر – ط أولى ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .
(٣) النكت والعيون : للإمام الماوردي ، جـ٥ ، ص٤٢٦ .
(٤) تعليق محقق النكت والعيون : السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم ، هامش ص٤٣٦ – جـ٥ .
(٥) الملل والنحل : للإمام الشهر ستاني ، تحقيق أمير على مهنا ، على حسن فاعود ، ص٨٦ ، دار المعرفة – بيروت .

والثاني أنها جنة أعدها الله لهما) [1] ويقول عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (الأعراف :١٩) وفي الجنة التي أمر بسكناها قولان أحدهما هي جنة الخلد التي وعد المتقون وجاز الخروج منها لأنها لم تجعل ثوابا فيخلد ولا يخرج منها ، والثاني : أنها جنة من جنات الدنيا لا تكليف فيها وقد كان مكلفاً) [2] .

فالإمام الماوردي هنا لم يكتف بذكر رأي واحد كما ذهب إلى ذلك ابن الصلاح بل إنه ذكر الرأيان ولم يرجح أحدهما على الآخر وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه يذكر الآراء التي قيلت في الآية ويستدل على كل رأي بادلته دون ترجيح أحد الآراء على الآخر غالباً .

بقيت وقفة [illegible] مع الإمام ابن الصلاح حيث إنه قال وتفسيره (الماوردي) عظيم الضرر لكون مشحوناً بتأويلات أهل الباطل وهذا ليس بحق فتفسير الماوردي عظيم النفع له مكانته العلمية وهذا الذي دفع الإمام العز بن عبد السلام أن يختصره كما دفع الكثير من العلماء إلى الإفادة منه والنقل عنه كالإمام القرطبي في كثير من المواضع والعلامة أبي السعود وغيرهم ممن يعرفون لهذا التفسير قدره يقول الماوردي في مقدمة كتابه (الحمد لله الذي هدانا لدينه القويم ومن علينا بكتابه المبين وخصه بمعجز دل على تنزيله ومنع تبديله وبين به صدق رسوله وجعل ما استودعه على نوعين ، ظاهراً جلياً ، وغامضاً خفياً يشترك الناس في علم جليه ويختص العلماء بتأويل خفيه حتى يعم الإعجاز ثم يحصل التفاضل والامتياز . ولما كان الظاهر الجلي مفهوماً بالتلاوة . وكان الغامض الخفي لا يعلم إلا من وجهين نقل واجتهاد جعلت كتابي هذا مقصوراً على تأويل ما خفي علمه وتفسير ما غمض تصوره وفهمه وجعلته جامعاً بين أقاويل السلف والخلف وموضحاً عن المؤتلف والمختلف وذاكراً ما سنح به الخاطر من معنى يحتمل عبرت عنه بأنه محتمل ليتميز ما قيل مما قلته ويعلم ما

---

(١) النكت والعيون : جـ١ ، ص١٠٤ .
(٢) المرجع السابق : جـ٢ ، ص٢٠٨ .

استخرج مما استخرجته وعدلت عما ظهر معناه من فحواه بفهم قارئة وتصور تاليه ليكون أقرب مأخذاً وأسهل مطلباً (١) .

أما عن طبيعة العصر الذي عاش فيه الماوردي فمعلوم أنه عاش حياته الطيبة الحافلة بجلائل الأعمال في البصرة وبغداد وأعمالهما من الأمصار القريبة ما بين ٣٦٤ – ٤٥٠هـ وقد كانت تلك الجهات في ذلك الوقت مسرحاً للفتن والدسائس من الداخل والخارج ومقام الخلافة في بغداد من الضعف والوهن وخور العزيمة بحيث أصبح الخلفاء آلات مسخرة وأدوات لا قيمة لها بين الترك والديلم يقول بن كثير في حوادث سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (وفي هذه السنة قبض بهاء الدولة بن عضد الدولة على الطائع لله عبد الكريم وكنيته أبو بكر بن المفضل المطيع لله بن جعفر المقتدر بن المعتضد بن الموفق ابن المتوكل بسبب طمع بهاء الدولة في مال الطائع ولما أراد بهاء الدولة ذلك أرسل إلى الطائع وسأله الإذن ليجدد العهد به فجلس الطائع على كرسيه ودخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فجذبه من سريره والخليفة يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ويستغيث فلا يغاث وحمل الطائع إلى دار بهاء الدولة وأشهد عليه بالخلع وكان الشريف الرضي حاضراً مهزلة القبض على الطائع وخلعه فبادر بالخروج من دار الخلافة وقال في ذلك أبياتاً منها :

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني ... يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني (٢)

ويذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن أن سياسة بني بويه في العراق كان لها أسوأ الأثر فقد قامت الفتن الطائفية وثار الجند كل في وجه الآخر وانتشرت الفوضى وعم الاضطراب وساد الفزع قلوب الأهلين وأدى تعصب بني بويه للشيعة إلى إرغام السنيين على الاشتراك في أعياد الشيعة (٣).

---

(١) النكت والعيون : للماوردي ، جـ١ ، ص٢١ .
(٢) البداية والنهاية : للإمام ابن كثير ، جـ ٦ – ص٢٥٦ ، ط الخامسة ، الناشر دار الحديث – سنة ١٤١٨هـ ، ١٩٩٨م .
(٣) تاريخ الإسلام : للدكتور حسن إبراهيم حسن ، جـ٣ ، ص٤٤ ، ط ٧ .

وهكذا نجد أن هذا العصر كان مليئاً بالفتن والاضطرابات والمنازعات ففي أوائل حياة الماوردي كانت فتنة القرامطة ومذبحتهم الكبرى في الكوفة كما كانت الباطنية وشيوع دعوة الحسن بن الصباح كما كانت دولة بني حمدان في حلب وحربهم ومنازعاتهم ، كما كانت حكومة الفاطميين في مصر أيام خلافة العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله . أما الأندلس فكانت خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر وحروب المنصور بن أبي عامر .

ومن أعجب ما يستوقف النظر أن تكون أيام هذه الفوضى من أخصب العصور الإسلامية للإنتاج الفكري في العلوم والفنون والآداب ولعل السبب في ذلك قرب ذلك العهد من النهضة العلمية الكبرى التي وضع الرشيد والمأمون أساسها في أيام خلافتهما الجليلة الشأن تلك الأيام التي تعد بحق العصر الذهبي للإسلام . يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن (فقد كان من أثر قيام كثير من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية (عصر الماوردي) أن نشطت الحركة الفكرية وزجت الثقافة وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم ومن ثم نرى صدى هذه النهضة المباركة في بلاط كل من السامانيين والقرنويين والبويهيين والحمدانيين في الشرق وفي بلاط الطولونيين والأخشيدين والفاطميين في مصر وفي بلاط الأمويين في الأندلس أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربهم السياسية والدينية ، وكان للجدل والنقاش الذي قام بين هذه الفرق من ناحية وبينها وبين العلماء من السنيين من ناحية أخرى أثر بعيد في هذه النهضة العلمية التي يتميز بها هذا العصر ، على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك وانحلال وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن ولكن قيام هذه الدول ساعد على ازدياد الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار الدول نتيجة لذلك) (١) .

فلا غرو ولا عجب أن ينبغ في هذا العصر من الفلاسفة والحكماء أمثال : ابن سينا والخيام والمعري ومن النحويين واللغويين ، القاضي أبو سعيد ابن عبد الله السيرافي النحوي مصنف شرح كتاب سيبويه والحسين بن زكريا اللغوي

---

(١) المرجع السابق : جـ٣ ، ص٣٣٣ .

صاحب كتاب المجمل وأبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي صاحب الإيضاح والتذكير والمقصور والممدود وغيرهم ومن المحدثين والأئمة الصيمري والأسفرائيني والماوردي والقاضي أبو الطيب والبيهقي والقشيري والباقلاني والحافظ أبو نعيم صاحب كتاب "حلية الأولياء" والحاكم النيسابوري إمام أهل الحديث في عصره ، ومن الأدباء والكتاب : الخطيب بن نباته الفارقي والصاحب بن عباد وابن العميد والثعالبي ومن الشعراء الشريف الرضي وأبو القاسم بن طباطبا وغيرهم (١) .

كل هؤلاء العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة كانوا معاصرين للإمام الماوردي وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على روح ذلك العصر من الوجهة العلمية .

أما فيما يتعلق بشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته فسوف أوجز الحديث عنها فيما يلي :

أولاً : شيوخه :

تتلمذ الإمام الماوردي على كثير من العلماء الأجلاء منهم من أخذ عنه الحديث ومنهم من أخذ عنه الفقه ومنهم من أخذ عنه علوم العربية ، ويذكر الخطيب البغدادي من أخذ عنهم الحديث (٢) :

١ - الحسن بن علي بن محمد الجبلي صاحب أبي خليفة الجمحي (٣).

٢ - محمد بن عدي بن زحر المنقري (٤).

٣ - محمد بن المعلي بن عبيد الله أو عبد الله الأسدمي الأزدي النحوي اللغوي (٥).

---

(١) المرجع السابق ، جـ٣ ، ص٣٥٠ وما بعدها .
(٢) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي ، جـ١٢ – ص١٠٢ .
(٣) الأنساب : للسمعاني ، جـ٢ ، ص١٩ ، بيروت – طبعة أولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .
(٤) سير أعلام النبلاء : للحافظ الذهبي .
(٥) طبقات الشافعية : جـ٣ – ص٢٣٢ ، ويثبت السبكي أنه تعلم على يديه العربية .

٤ - جعفر بن محمد الفضل بن عبد الله أبو القاسم الدقاق ويعرف بابن المارستاني أخذ عنه الحديث ومات سنة سبع وثمانين وثلاثمائة [١] .

أما عن شيوخه في الفقه فإن ابن خلكان يحدثنا عن اثنين منهم [٢] .

١ - الصيمري وهو أبو القاسم عبد الواحد بن الحسين البصري توفي سنة ست وثمانين وثلاثمائه [٣] .

٢ - الأسفرائيني وهو أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الأسفرائيني حافظ الشافعي وإمامه توفي سنة ست وأربعمائة [٤].

٣ - اليافي : الشيخ الإمام أبو محمد عبد الله محمد البخاري اليافي مات رحمه الله في المحرم سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، يذكر ابن كثير أن اسمه عبد الله بن محمد الباجي الخوارزمي أحد أئمة الشافعيه ، له معرفة جيدة بالأدب والفصاحة والشعر [٥].

ثانياً تلاميذه :

١ - الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت صاحب تاريخ بغداد المتوفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة والذي يقول عن الماوردي (كتبت عنه وكان ثقة ...) [٦] .

٢ - محمد بن عبد الله بن الحسن أبو الفرج البصري قاضي البصرة سمع أبا الطيب الطبري والماوردي ورحل في طلب الحديث ، توفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة [٧].

(١) لسان الميزان : لابن حجر ، جـ٢ – ص١٢٤ .
(٢) وفيات الأعيان : لابن خلكان ، جـ٣ ، ص٢٨٢ .
(٣) وفيات الأعيان : لابن خلكان ، جـ٣ ، ص٢٨٢ .
(٤) الأعلام : للزركلي ، جـ١ ، ص٢١١ .
(٥) البداية والنهاية : لابن كثير ، جـ١ – ص٢١١ .
(٦) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي ، جـ١٢ – ص١٠٢ .
(٧) البداية والنهاية : لابن كثير ، جـ١٢ ، ص١٦٦ .

٣ - ابن خيرون : أبو الفضل أحمد ابن حسين المعروف بابن الباقلاني توفي سنة (٤٨٨هـ) [١].

٤ - عبد الملك ابن ابراهيم بن أحمد المعروف (بالهمداني) تفقه على الماوردي توفي سنة (٤٩٤هـ) [٢].

٥ - محمد بن عبد الباقي بن الحسين بن محمد بن طوق أبو الفضائل الربعي الموصلي روى عنه الحديث ، توفي سنة (٤٩٤هـ) [٣].

٦ - أحمد بن عبيد الله محمد بن أحمد بن حمدان المعروف بابن كادش البغدادي روى عنه الحديث توفي سنة (٥٢٦هـ) [٤].

٧ - على بن الحسين بن عبد الله الربعي المعروف بابن عربية توفي سنة (٥٢٠هـ) [٥].

٨ - أحمد بن علي بن بدران أبو بكر الحلواني أخذ عنه الحديث مات سنة (٥٠٧هـ) [٦].

٩ - عبد الرحمن بن عبد الكريم بن هوازن أبو منصور القشيري أخذ عنه الحديث مات سنة ٤٨٢هـ[٧] .

١٠ - عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن الأستاذ ابو سعيد بن الأستاذ أبو القاسم القشيري الملقب بركن الإسلام مات سنة (٤٩٤هـ) [٨].

١١ - محمد بن على بن منصور بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد الفراء القزويني (أبو منصور) توفي سنة (٥١٠هـ) .

١٢ - محمد بن أحمد بن عمر (أبو عمر) النهاوندي الحنفي أخذ عنه الحديث ، مات سنة (١٩٧هـ) .

---

(١) البداية والنهاية : لابن كثير ، جـ٦ ، ص١٦١ .
(٢) طبقات الشافعية : للسبكي جـ٣ ، ص١٥٧ .
(٣) طبقات الشافعية : للسبكي جـ٢ ، ص٤٧٠ .
(٤) البداية والنهاية : لابن كثير جـ٦ ، ص٢٢٠.
(٥) شذرات الذهب : جـ٤ ، ص٤ .
(٦) شذرات الذهب : ج٤ ، ص١٦ .
(٧) طبقات الشافعية : للسبكي جـ٣ ، ص١٥٧ .
(٨) طبقات الشافعية ، جـ ٣ ، ص١٢٣ .

١٣ - عبد الغني بن نازل بن يحي بن الحسن بن شاهي الألواحي (أبو محمد) البصري أخذ عنه الحديث ومات سنة (٤٨٦هـ) (١).

١٤ - علي بن سعيد بن عبد الحمن بن محرز بن أبي عثمان المعروف بأبي الحسن العبدري أخذ عنه الحديث ومات سنة (٤٩٣هـ) (٢) .

ثالثاً : مؤلفاته :

امتاز الإمام الماوردي بغزارة الإنتاج ودقة العبارة وحسن الأسلوب وواقعيته وتنوع جوانبه فقد ألف في التفسير والفقه والأخلاق والسياسة .. الخ ، وكانت لمؤلفاته مكانتها العلمية والأدبية مما جعل علماء عصره ومن أتى بعده يفيدون منها ، يقول عنها ياقوت الحموي (له تصانيف حسان في كل فن) (٣) أما ابن السبكي فيقول عنها (إنه كان له التفنن التام في سائر العلوم) (٤) .

ويذكر الخطيب البغدادي (وله تصانيف عدة في أصول الفقه وفروعه وغير ذلك) (٥) ويقول ابن خلكان (وكان حافظاً للمذهب وله فيه كتاب الحاوي الذي لم يطالعه أحد إلا وشهد له بالتبحر والمعرفة التامة بالمذهب ... وصنف في أصول الفقه والأدب وانتفع الناس به ....)(٦) . وقال ابن العماد الحنبلي (ومن تصانيفه الحاوي قال الإسنوي ولم يصنف مثله وكتاب الأحكام السلطانية وهو تصنيف عجيب ...)(٧) . **واهم هذه المؤلفات هي :**

١ - النكت والعيون (في التفسير) طبع دار الكتب العلمية ببيروت لبنان في ست مجلدات راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحـيم .

---

(١) طبقات الفقهاء : جـ٣ ، ص١٤٢ .
(٢) طبقات الشافعية : جـ ٣ – ص٢٢٥ .
(٣) معجم الأدباء : لياقوت ، جـ١٥ ، ص٥٢ .
(٤) طبقات الشافعية : جـ٣ ، ص٢٣٣ .
(٥) تاريخ بغداد : جـ١٢ – ص١٠٢ .
(٦) وفيات الأعيان : لابن خلكان ، جـ٣ ، ص٢٨٢ .
(٧) شذرات الذهب : جـ٣ ، ص٢٨٦ .

٢ - الحاوي الكبير وهو موسوعة ضخمة في فقه الإمام الشافعي وقد نقل ابن الجوزي في المنتظم عن الماوردي قوله (بسطت الفقه في أربعة آلاف ورقة واختصرته في أربعين يريد بالمبسوط الحاوي وبالمختصر الإقناع [١] ، وهو مطبوع) .

٣ - الإقناع وهو اختصار للمبسوط (الحاوي الكبير) ويقال أنه ضاع ولم يعثر عليه .

٤ - أدب القاضي وهو قسم من كتاب الحاوي نشر محققاً الدكتور محي هلال السرحان في جزأين كبيرين) .

٥ - أعلام النبوة وقد طبع ثلاث طبعات بدون تحقيق .

٦ - كتاب الأمثال والحكم وهو يضم ثلاثمائة حديث وثلاثمائة حكمة وثلاثمائة بيت شعر ولعل هذا الكتاب هو ماعناه السيوطي في الإتقان في النوع السادس والستون في أمثال القرآن حيث قال (أفرد بالتصنيف الإمام أبو الحسن الماوردي من كبار أصحابنا اهـ)[٢] . ولا يزال مخطوطاً .

٧ - كتاب البغية العليا في أدب الدنيا والدين وهو الكتاب المشهور بين الناس باسم ادب الدنيا والدين ، مطبوع عدة طبعات في مصر والخارج .

٨ - قوانين الوزارة وسياسة الملك وقد طبع بالقاهرة سنة ١٩٢٩ بعنوان أدب الوزير ثم أعيد طبعه بتحقيق الأستاذ رضوان السيد سنة ١٩٧٩م .

٩ - نصيحة الملوك وقد طبع بدون تحقيق .

١٠ - الأحكام السلطانية وهو من أشهر مؤلفات الماوردي وأكثرها أهمية وطرافة من حيث موضوعه فهو يتناول جوانب الحكم وأركان نظام الدولة وقد طبع عدة طبعات .

---

(١) المنتظم : لابن الجوزي ، جـ١٦ ، ص٤١ .
(٢) الإتقان في علوم القرآن : للسيوطي ، جـ٤ ، ص٣٨ .

١١ - تسهيل النظر وتعجيل الظفر وقدطبع بتحقيق محي هلال السرحان سنة ١٩٨١م .

١٢ - كتاب في النحو ذكره ياقوت الحموي ولم يُعلم عنه شيء لكن ياقوت يذكر أنه قد رآه بنفسه وقال عنه إنه في حجم الإيضاح أو أكبر والإيضاح كتاب متوسط في النحو لأبي علي الفارسي المتوفي سنة (٣٧٧هـ) . هذه هي أهم مؤلفات الإمام الماوردي .

رابعاً : وفاته :

أما عن وفاته رحمه الله فيجمع العلماء والمترجمون أنه توفي في سلخ شهر ربيع الأول من سنة خمسين وأربعمائة عن ست وثمانين سنة ودفن بباب حرب ببغداد وصلى عليه الخطيب البغدادي في جامع المدينة وشيعه رؤساء الدولة وعلماؤها[١] .

---

(١) تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ، جـ١٢ ، ص١٠٣ ، وفيات الأعيان : لابن خلكان جـ٣ ، ص٢٨٢ ، سير أعلام النبلاء : للذهبي جـ١٨ – ص ٦٤ .

المبحث الثاني

الفلسفة الخُلقية لدى الماوردي

تكاد تكون الفلسفة الأخلاقية من أقل فروع الفلسفة حظاً من عناية الدارسين والمؤرخين للثقافة الإسلامية ، فالقاضي صاعد بن أحمد الأندلسي مثلاً لا يذكر علم الأخلاق ضمن ما ذكره من علوم العرب[1] .

وكذلك العلامة بن خلدون لا يذكر شيئاً عن علم الأخلاق وهو يتحدث في الفصل السادس – في مقدمته – والذي عقده لبيان العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه عند العرب[2] .

ويعلل أستاذنا الدكتور محمد يوسف موسى ذلك بقوله (إن من يريد أن يتعرف على التفكير الأخلاقي في الفترة – موضوع الحديث – أي فجر الإسلام وضحاه حتى عرف المسلمون الفلسفة الإغريقية لابد له من التماس هذا في كتب الأدب قبل كل شيء لأن المسلمين لم يعنوا بالأخلاق كعلم من العلوم يفردونه بالبحث والتأليف إلا بعد أن علوا ونهلوا من الفلسفة اليونانية وكانت كتب الأدب تعني – فيما تعني به – بالحكمة والحث عليها والأخلاق والدعوة لها)[3].

وليس معنى ذلك أن المسلمين لم يكن عندهم علم بالمشكلات الأخلاقية ولم يعالجوها ضمن معالجتهم للمسائل العقلية التي ناقشوها ضمن أبحاثهم : إنما الذي يعنيه " أستاذنا " علم الأخلاق في جانبه النظري – فلسفة الأخلاق – وإن كنت أرى أن علماء الإسلام ومفكريه قد عالجوا أمهات المسائل الأخلاقية ضمن أبحاثهم – كل فيما يخصه – وإن كانوا لم يفردوها بشيء خاص بها إلا أنهم تناولها بالبحث والدرس والشرح والتحليل وإقامة الأدلة والبراهين على صحة ما

(١) طبقات الأمم : للقاضي صاعد بن أحمد الأندلسي ، ص٥٦ ومابعدها ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، دار المعارف .

(٢) مقدمة بن خلدون : للعلامة عبد الرحمن بن خلدون ، ص٤٣٥ ومابعدها ، ط أولى ، دار العلم – بيروت – لبنان .

(٣) فلسفة الأخلاق في الإسلام : للدكتور محمد يوسف موسى ، ص٢٣ ، ط٢ ، مكتبة الخانجي – بالقاهرة .

ذهب إليه كل منهم فيما هو بصدد الحديث عنه قبل اتصال المسلمين بفلسفة اليونان ثم لما حدث الاتصال المباشر كان من المسلمين من سار على نهجهم من حيث الشكل والصورة مع تباين الهدف والغاية وكان منهم من ظل على نهجه ولذلك يمكن أن أقول إن ميادين البحث في الأخلاق في الإسلام أهمها ميادين ثلاثة :

الميدان الأول : ميدان الفلسفة التقليدية ونقصد بهذا الميدان الذي احتله أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد ... وغيرهم ، ومن سار سيرتهم واقتصر في معظم الحالات على الدراسات النظرية ويمتاز أهل هذا الميدان بالمنهج المنظم حيث يذكروا المقدمات ، تليها التعريفات ، والتحليلات ، والتوضيحات ، وتقسيم الفضائل والنفوس وحظ هذه من تلك مع بعض المباحث العامة حول السعادة والخير إلى آخر هذه المشاكل الأخلاقية وهم يتأسون في ذلك بما نقلوه من ثقافة أجنبية في طريقة العرض وربما نصوا على ذلك في مؤلفاتهم .

الميدان الثاني : ميدان علم الكلام وهو الميدان الذي ظهرت فيه أمهات الفرق الكلامية وعلى رأسها أعلامها من المفكرين المسلمين الذي اتخذوا عقيدة الإسلام نقطة البدء وراحوا ينشدون لها الأدلة العقلية دفاعاً عنها ودحضا لآراء خصومها .

وقد عالج علماء الكلام مشاكل أخلاقية خطيرة مثل مشكلة الخير والشر ، والحسن والقبح وحرية الإرادة الإنسانية والجبر . ومن الطبيعي ألا نعثر على رأي متفق عليه في أي من هذه المشاكل فلكل فريق رأيه ولكل مفكر أدلته وحججه .

الميدان الثالث : ميدان التصوف وهو الميدان الذي احتله هؤلاء الذين اتخذوا تجاربهم مصدراً هاماً لمعرفتهم وبرهاناً صحيحاً على روحية دينهم وتمثيلاً قوياً لمبادئه الأخلاقية وان كانوا قد جمعوا إلى ذلك – أي إلى السلوك والعمل . حديثهم عنها وتفكيرهم فيها(١) .

---

(١) دراسات فلسفية وأخلاقية : للدكتور محمد كمال جعفر ، ص٣٥٢ ، الناشر مكتبة دار العلوم القاهرة – سنة ١٩٧٨م .

هذه هي ميادين البحث في الأخلاق منذ عصر الإسلام الذهبي وهي في حقيقتها ترجع إلى صورتين يقول الأستاذ أبو بكر ذكري (والمتتبع لما كتبه الإسلاميون في الأخلاق يراه لا يعدو نمطين : إحداهما تسوده النزعة الدينية ويتضاءل فيه تصيب البحث النظري الفلسفي المطلق فهو جدير بأن يكون من قسم الأخلاق العملية التي تعني ببيان الحقوق والواجبات وترسم المنهج العملي للمران على الفضائل دون أن تتصدى للبحث النظري المجرد إلا عاماً : والنمط الأخر تسوده الروح الفلسفية بارزة الطابع تطلق العنان للعقل المجرد ولا تتصدى لربط أبحاثها بالعقائد الدينية الا تحريما على بعد وربما جاءت بما يناقض تلك العقائد[1].

ويضرب المثال للنوع الأول بما كتبه الماوردي والغزالي وغيرهما وللنوع الثاني بما كتبه الكندي والفارابي وغيرهما من فلاسفة الإسلام إلا أنني أضيف إلى هذا الجانب ما كتبه علماء الكلام أثناء معالجتهم لأمهات المسائل الأخلاقية ضمن أبحاثهم العقدية أثناء تصديهم للمخالفين لها والدفاع عنها .

أما عن تعريف علم الأخلاق عند الإسلاميين . فقد عرفه التهانوي بأنه (معرفة النفس ما لها وما عليها من الوجدانيات ... ويسمى بعلم الأخلاق وعلم التصوف)[2].

ولم يقف عند هذا الحد بل إنه يزيده وضوحاً عند تقسيمه للحكمة فيجعل علم الأخلاق من أقسام الحكمة العملية حيث يقول (.. الأعيان الموجودة إما الأفعال والأعمال وجودها بقدرتنا واختيارنا ، أولاً . فالعلم بأحوال الأول من حيث إنه يؤدي إلى صلاح المعاش والمعاد يسمى حكمة عملية لأن غايتها ابتداء الأعمال التي لقدرتنا مدخل فيها فنسبت إلى الغاية الابتدائية)[3].

(١) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية : للأستاذ أبو بكر ذكري ، ص ٢٤ ، الطبعة الثالثة – سنة ١٩٥٨م .
(٢) كشاف اصطلاحات الفنون : للتهانوي ، جـ١ – ص٤٤ ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٨م .
(٣) المرجع السابق ، ص٤٦ .

وبهذا يدفع التهانوي رأي من يقول بأن الحكمة العملية أيضاً منسوبة إلى النظر حيث إنه بين أن المهم عنده في التقسيم هو الغاية : فغاية الحكمة العملية هو العمل لا النظر وإن كان النظر مطلوباً إلا أنه مطلوب لغيره لا لذاته.

ثم بين التهانوي أن الحكمة العملية لها أقسام ثلاث من أهمها علم الأخلاق حيث يقول (ثم الحكمة العملية ثلاثة أقسام : إما العلم بمصالح شخص بانفراده ويسمى تهذيب الأخلاق ، وعلم الأخلاق ، والحكمة الخلقية ، وفائدتها : تهذيب الأخلاق . أي تنقيح الطبائع بأن تعلم الفضائل وكيفية اقتنائها لتزكي به النفس وأن تعلم الرذائل وكيفية توقيها لتطهر عنها النفس)[1].

وإذا ما قيل بأن هذا التقسيم للحكمة هو عين ما ذهب إليه السابقون أقول : ليس عينه بل هو شكله في الصورة لكنه يختلف عنه في جوهره وغايته والدليل على ذلك ما قاله التهانوي (وأعلم أن فائدة الحكمة الخلقية عامة شاملة لجميع أقسام الحكمة العملية ثم مبادئ هذه الثلاثة من جهة الشريعة وبها تتبين كمالات حدودها)[2].

وهذا يعني أن علماء الإسلام وإن كانوا يتفقون مع السابقين في شكل التقسيم وصورته إلا أنهم يختلفون عنهم في جوهره وحقيقته كما أنهم يختلفون عنهم في أساسه وغايته فالمنهج عند علماء الإسلام يختلف عن المنهج عند السابقين كما إن نقطة الانطلاق عند الإسلاميين هي الدين بينما هي عند السابقين على العقل وكذلك الاعتماد عند الإسلاميين على الوحي الذي لا يخطئ بينما هي عند السابقين على العقل الذي يخطئ ويصيب .

وإذا كان السابقون قد اعتمدوا على العقل وحده فإن الإسلاميين قد اعتمدوا على الوحي والعقل معاً "نور على نور" .

هذا فيما يتعلق بعلم الأخلاق . أما ما يتعلق بتعريف الخلق ... فهذا ما سوف أتناوله .

---

(١) المرجع السابق ، ص٤٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص٥٤ .

تعريف الخلق في اللغة العربية : -

الخُلق بالضمة أو بضمتين السجية والطبع والمروءة والدين ، والخليقة الطبيعية .

يقول ابن منظور (... الخِلقة : الفطرة .. والخليقة السليقة : والخلْق الخليقة . أعني الطبيعة وفي التنزيل : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ والجمع أخلاق ، والخلق والخلق السجية .. الخلق بالضم اللام وسكونها وهو الدين والطبع والسجية وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولها أوصاف حسنة وقبيحة والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة) [١] .

وقد ورد لفظ الخُلق في القرآن في موضعين الأول﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء ١٣٧) والثاني﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم) يقول الراغب الأصفهاني (الخَلق والخُلق في الأصل واحد كالشَّرب والشُّرب ولكن خص الخلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر وخص الخلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة) [٢] . كما ورد لفظ الخلق في كثير من أحاديث رسول الله (ﷺ) منها قوله عليه السلام (ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من خُلق حسن) وقوله (ﷺ) (أحبكم إلى الله تعالى أحسنكم أخلاقاً) وقوله عليه السلام (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

أما عن تعريفه في الاصطلاح :

يعرف ابن مسكويه الخلق بأنه (حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية) [٣] .

---

(١) لسان العرب : لابن منظور ، جـ٥ – ص١٤٠ ، دار صادر – بيروت ، الطبعة الأولى – سنة ٢٠٠٠م .

(٢) المفردات : للراغب الأصفهاني ، ص١٦٤ ، دار المعرفة – بيروت ، ط٣ ، سنة ١٤٢٢هـ .

(٣) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق : لابن مسكوية ، ص٤١ ، تحقيق ابن الخطيب ، الطبعة الأولى – بدون تاريخ .

ويعرفه الإمام الغزالي بأنه (هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية) (١) .

وتعريف الإمام الغزالي أدق وأشمل من تعريف ابن مسكويه وذلك للأمور الآتية :

١ - أن الخلق هيئة في النفس وليس هيئة للنفس بأجمعها وهيئات النفس منها ما يتعلق بالجانب العقلي ومنها ما يتعلق بالجانب العاطفي ومنها ما يتعلق بالجانب الإرادي ، ومما لاشك فيه أن الأخلاق تتعلق بالجانب الإرادي الذي يخضع للمدح والذم والثواب والعقاب ولذلك يعرفه الدكتور دراز بأنه (قوة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح (إن كان الخلق حميداً) أو اختيار ما هو شر وجور (إن كان الخلق ذميماً) (٢) .

٢ - **أن الخلق هيئة راسخة أي مستقرة ويتفرع عن هذا الأمر مسألتان :**

المسألة الأولى : أن هذه الصفة إن لم تكن مستقرة فليست جديرة بأن تسمى خلقاً فمن بذل المال مرة لحاجة عارضة لا يقال إنه سخي أو كريم وهو لا يستحق هذه الصفة حتى يصبح البذل عادة له ، وهكذا .

المسألة الثانية : فإن وصف الخلق بأنه هيئة راسخة يحتاج إلى بيان ما يشبهه من هيئات في النفس كالغرائز والدوافع والتفرقة بينهما .

(فالغريزة مجموع معقد من ردود الفعل الخارجية والوراثية المشتركة بين جميع أفراد النوع والمتعلقة بغرض معين لا يشعر به الفاعل ، وقد تطلق على الاندفاع التلقائي الخالي من الوعي أو على الاندفاع الإرادي المصحوب بالاحتياج وهي صورة من صور النشاط النفسي وطراز من السلوك يعتمد على الفطرة والوراثة البيولوجية) (٣) .

---

(١) إحياء علوم الدين : للإمام الغزالي ، جـ ٣ ، ص٥٢ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة١٩٣٩م .
(٢) دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية : للدكتور محمد عبد الله دراز ، ص٨٨ ، ط٢ ، الكويت – دار القلم سنة ١٩٧٤م .
(٣) المعجم الفلسفي : للدكتور جميل صليبا ، جـ٢ – ص١٢٧ ، سنة ١٩٩٤م.

ويعرفها التهانوي بأنها (ملكة تصدر عنها صفات ذاتية ..) [1] .

والفرق بين الأخلاق والغرائز أن الأخلاق قابلة للمدح والذم بينما أن الغرائز لا تخضع لمدح أو ذم كما أن الغرائز جميعها فطرية بينما أن الأخلاق منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب .

٣ - إن هذه الهيئة الراسخة في النفس تصدر عنها الأفعال ويعبر عنها السلوك وهذا يعني أن الخلق يختلف عن الفعل والسلوك ، حيث إن الخلق صفة ذاتية أما الفعل والسلوك فهما مظهر يعبر عن الخلق وهو لا يكون معبراً عن حقيقة الخلق إلا بتوافر شرطين .

الأول : أن يتكرر الفعل بصورة دورية عند وجود ما يقتضيه فيكون هذا التكرار مؤشراً على وجود قوة راسخة ونزعة ثابتة في النفس .

الثاني : أن يقوم الدليل على أن هذا الفعل صادر بصورة تلقائية عن النفس وليس استجابة لمؤثرات خارجية كالخوف أو الحياء أو الرجاء ، مما يجعل صدور الفعل حينذاك تكلفاً يتنافى مع سجية صاحبه وخلقه .

٤ - إن صدور الفعل عن هذه الهيئة يكون بسهولة ويسر من غير تكلف وروية وذلك لأنه كما قال الإمام الغزالي (من تكلف بذل المال والسكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم)[2] .

على أن الإمام الغزالي يشير أن للتكلف دوراً هاماً في اكتساب الخلق فهو يشير إلى أن هناك فرقاً بين الخلق والتخلق كما بين الطبع والتطبع فيكون التكلف في هذه الحالة سبيلاً لاكتساب الخلق [3] .

تعريف الخلق لدى الماوردي :

يعرف الماوردي الخلق ويفرق بينه وبين الأدب فيقول (وحقيقة الخلق في اللغة هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب سمى خلقاً لأنه يصير كالخلقة فيه)

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون : جـ٣ – ص٣٩٤ .
(٢) الإحياء : للغزالي ، جـ٣ – ص٥٢ .
(٣) الإحياء : للغزالي ، جـ٣ – ص٥٦ .

. فأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخيم فيكون الخلق الطبع المتكلف والخيم هو الطبع الغريزي وقد أوضح ذلك الأعشي في شعره فقال :

وإذا ذو الفضول ضن على المو   لى وعادت لخيمها الأخلاق [1]

وهذا التعريف يشتمل على الأمور التالية :

أولاً : أن الخلق راجع إلى أفعال الإرادة لا الغرائز والعواطف وهذا معنى قوله (هو ما يأخذ به الإنسان نفسه) .

ثانياً : أن ما يأخذ به الإنسان نفسه (الفعل الإرادي) منه ما هو خير ومنه ما هو غير ذلك .

ثالثاً : أن الخلق يختلف عن الخيم (الأدب) الذي هو الأمر الفطري الذي ولد عليه الإنسان فإن هذا الأمر غريزي وهو لا يذم فيه الإنسان ولا يمدح بينما أن الخلق هو الطبع المتكلف وهذا يعني أن الأخلاق تأتي بالاكتساب والتكلف ولا تكون خلقاً إلا إذا صارت طبعاً .

والإمام الماوردي قد أحسن في التوجيه لبيان مدلول الخلق وبم يكون حسناً أو سيئاً ويرى أن الأخلاق ، غرائز كامنة تظهر بالاختيار وتقهر بالاضطرار [2].

ويقرر أن الاستعداد الأخلاقي فطري أي كامن في طبيعة النفس الإنسانية ولكنه يظهر بالاختيار ، فلإرادة الإنسان دور هام جداً ، ثم إنها في نفس الوقت تقهر بالاضطرار أي أنها تقهر بطريق الضبط عن طريق الدين والمجتمع وآدابه وعاداته .

فيقول : للنفس أخلاق تحدث عنها بالطبع ، ولها أفعال تصدر عنها بالإرادة فهنا ضربان لا تنفك النفس منها ، أخلاق الذات وأفعال الإرادة [3].

والملاحظ أن الماوردي يفسر أخلاق الذات على أنها من نتائج الفطرة ، وسميت أخلاقاً لأنها تصير كالخلقة ، والإنسان مطبوع على أخلاق قل ما حمد

(١) النكت والعيون : للماوردي ، جـ٦ – ص٦١ : ٦٢ .
(٢) تسهيل النظر وتعجيل الظفر : للماوردي ص٥ .
(٣) المرجع السابق .

جميعها أو ذم سائرها وإنما الغالب أن بعضها محمود وبعضها مذموم لاختلاف ما امتزج من غرائزه ، ومضادة ما تنافر من نحائزه فتعذر لهذا التعليل أن يشمل فضائل الأخلاق طبعاً وغريزة ، ولزم لأجله أن يتخللها رذائل الأخلاق طبعاً وغريزة ، فصارت الأخلاق غير منفكة في جبلة الطبع ، وغريزة الفطرة من فضائل محمودة ورذائل مذمومة [1] .

وتوضيحاً لما سلف فإن الماوردي يرد تفسير الخلق إلى :

أولاً : استعداد فطري للتخلق سواء غلب على هذه الأخلاق الحسن أو القبح ، فالإنسان مطبوع على استعدادات لا تحمد كلها ولا تذم كلها ، بمعنى أن لديه الاستعداد لإتيان المحمود والمذموم سواء بسواء ، ولذا فإن الأخلاق لا تنفك عن الطبع والسجية والغريزة .

ثانياً : الاكتساب أي اكتساب الخلق من الجو المحيط بالبيئة .

فكان الماوردي يقول بطبيعة محايدة للإنسان ، والإنسان مجبول على طبائع وغرائز منها ما هو محمود ومنها ما هو مذموم ، وطبيعة الإنسان قابلة لفعل الخير والشر واكتسابهما ، فيقول : لكل خلق من الفضل رقيب من الدناءة لا يمتنع عنه إلا مؤثراً للفضل عما سواه [2] .

إنه الخط الوسط الذي يؤمن به الماوردي فهو يذكر القولين معاً ولا يرجح أحدهما وكأنه مؤمن بهما جميعاً .

الأخلاق لدى الماوردي بين الفطرة والاكتساب :

لقد اختلف العلماء والمفكرون اختلافاً كبيراً حول فطرية الأخلاق واكتسابها إلى فريقين :

الفريق الأول : ويرى أنصاره أن الأخلاق فطرية وأنه ليس هناك مجال لتغييرها وقد استدل هؤلاء على صحة مذهبهم بدليلين .

---

(١) المرجع السابق ، ص٦ .
(٢) المرجع السابق .

الدليل الأول : أن الخلُق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر ، فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيراً ولا القبيح يقدر على تحسين صورته وكذلك الباطن يجري هذا المجرى .

الدليل الثاني : قالوا بأن حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب وذلك من مقتضى المزاج والطبع والذي لا ينفك عن الآدمي فالاشتغال به تضييع زمان بدون فائدة (١) .

ويجاب على هذا الرأي بما يلي :

١ - إن دعوى أن الخلق كالخلق لا يمكن تغييره مردودة لما يلي :

أ - إطلاق النصوص الشرعية الداعية إلى التمسك بالفضائل والإعراض عن الرذائل فلو لم يكن ثمة مجال لاكتساب الأخلاق لبطلت الحكمة من إرسال الرسل ولكان نزول الكتب السماوية عبثاً ولما كان هناك مجال للتعليم والمواعظ .

ب - قوله (ﷺ) مخاطباً معاذ : (يا معاذ حسن خلقك للناس) ومن دعائه (ﷺ) حين نظره في المرآة (اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي) .

ج - لقد تمكن الإنسان من ترويض الحيوانات والطيور والتحكم في غرائزها لصالحه فكيف لا يمكنه من توجيه نفسه أو أبناء جنسه .

٢ - أما قولهم إن من المتعذر قمع الشهوة والغضب فيجاب عنه بما يلي :

أ - أن التربية الخلقية لا تستهدف قمع الشهوات ولكنها تهدف إلى كبحها وتهذيبها ، أن هناك فرقاً واضحاً بين الكبت والكبح فالأول : عمل لا شعوري تلقائي بينما الثاني مصحوب بالشعور والإرادة (٢) وكذلك الكبت مضاد للفطرة وبالتالي هو مضاد لمنهج الإسلام ، أما الكبح فهو عملية واعية تستهدف توجيه الوارد والصادر والتحكم في إشباع

---

(١) إحياء علوم الدين : للإمام الغزالي ، جـ٣ – ص٥٤ .
(٢) المعجم الفلسفي : للدكتور جميل صليبا ، جـ٢ ص٢٢٣ .

الحاجات والدوافع البشرية بصورة عاقلة راشدة بهدى من الشرع الحنيف .

يقول الإمام الغزالي (... ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة . فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لأنقطع النسل . ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك ... ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قطع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما الغالب عليهما ممكن وهو المراد بتغيير الخلق ...) [1] .

وإلى هذا الرأي جنح الإمام الماوردي في نتاجه الفكري والعلمي وقرر بان رياضة الأخلاق مهمة وتهذيبها ضروري والتأديب مهم لا لأن الإنسان شرير بطبيعته ولا خير بجبلته ولكن ليستقيم للإنسان الخلق الأصلي المطبوع عليه والخلق المصنوع أو المكتسب من العوامل الخارجية المؤثرة في الخلق ، فالمعالجة والتربية والتأديب مهم في مجال الأخلاق ويعلل الماوردي ذلك فيذكر أن الأخلاق على نوعين :

الأول : نوع غريزي مطبوع عليها الإنسان وهذه تعود إلى كرم المنشأ وعلو الهمة .

والثاني : نوع مكتسب تطبع الإنسان عليها .

وكل منهما محتاج للآخر والأخلاق لا تنفك منهما فهي بمنزلة الروح والجسد وكما لا يظهر أعمال الروح إلا الجسد ولا ينهض الجسد إلا بحركة الروح كذلك الغريزة والاكتساب يتقابلان في الفعل ويتشاركان في الفضل فهما متساويان في الطبع والغريزة [2] .

---

(١) الإحياء : للغزالي ، جـ٣ – ص٥٥ .
(٢) تسهيل النظر وتعجيل الظفر : للإمام الماوردي ، ص١١ ، تحقيق محيي هلال سرحان ت بيروت سنة ١٩٨٣ .

إذن فالأخلاق عند الماوردي منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب .

على أن ما ذكره الماوردي هو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله وقوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس ٧ – ١٠) ، يقول الماوردي عند تفسيره لهذه الآيات (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) وفيه وجهان أحدهما ، قد أفلح من زكى الله نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال ، والثاني : قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال وفي زكاها وجهان ، أحدهما طهرها ، والثاني : اصلحها (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) ، فيه وجهان ، أحدهما : على ما قضى وقد خاب من دسا الله نفسه ، والثاني من دس نفسه وفي (دساها) سبعة تأويلات : أحدهما : أغواها وأضلها ،والثاني : إثمها وفجورها ، والثالث : خسرها ، والرابع : كذبها ، الخامس : أشقاها ، السادس : حببها إلى الخير ، السابع : أخفاها واخملها بالبخل) [١].

ويقول عند تفسيره لآية الإنسان ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ فيه أربع تأويلات أحدهما : سبيل الخير والشر والثاني : الهدى من الضلالة ، الثالث : سبيل الشقاء والسعادة ، الرابع : خروجه من الرحم [٢] .

وهو في هذه الأقوال السالفة ينسب كل قول إلى صاحبه دون ترجيح أحد هذه الأقوال على الآخر ثم يقول (ويحتمل وجهاً خامساً : سبيل منافعه ومضاره التي يهتدى إليها بطبعه وقبل كمال عقله) [٣] .

ويمكن أن أشير هنا إلى ملاحظتين :

الملاحظة الأولى : أن الماوردي يجمع بين وجهات نظر مختلفة وهذا يعني أن فهم النص عنده لا يقتصر على وجهة نظر بعينها إنه يحتمل هذا وذاك فيحتمل ما ذهب إليه الأشاعرة والمعتزلة والصوفية على السواء .

الملاحظة الثانية : أن الماوردي شأنه شأن العلماء الفاهمين العاملين فهو حين يتحدث عن الخير ينسبه إلى الله (كما هو مذهب الأشاعرة والصوفية) أو

---

(١) النكت والعيون : للماوردي ، جـ٦ – ص٢٨٣ .
(٢) المرجع السابق : جـ٦ ، ص١٦٤ .
(٣) المرجع السابق : جـ٦ – ص١٦٤ .

إلى النفس كما هو مذهب المعتزلة أما حين يتحدث عن الشر فلا ينسبه إلا للنفس الإنسانية وهذا نوع آداب يختص الله به من يشاء من عباده .

لكن إذا كانت الأخلاق عند الماوردي منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب فهل الإنسان عنده خير بطبعه أو شرير بطبعه أو عنده استعداد لهذا وذاك . هذا هو مدار الحديث .

الخير والشر في فكر الماوردي :

هل يولد الإنسان خيراً . أو شريراً . أم أن بعض الناس يولدون خيرين والآخرين أشرار . أم أن لدى الإنسان استعداداً للخير والشر ؟

اختلف العلماء والمفكرون قديماً وحديثاً في إجابتهم على هذه التساؤلات حتى القائلين بحرية الإرادة وينحصر ذلك في الآتي :

١ - الطبيعة الإنسانية خيرة بذاتها والشر عارض بسبب خطأ أو جهل أو تأثير بيئي وعلى المربيين تنمية هذه الروح الخيرة في الإنسان ومن القائلين بهذا سقراط والرواقيون قديماً ثم جان جاك رسو من فلاسفة النهضة .

٢ - الطبيعة الإنسانية شريرة والخير طارئ عليها ومهمة المربين كبح جماح الشهوات والدوافع البشرية وتكوين ملكة إرادية توجه الإنسان إلى الخير وتنأى به عن الشر ومن القائلين بهذا البوذيون وقد سرى هذا الاعتقاد إلى الكنيسة المسيحية في وقت متأخر حيث رأت أن الخطيئة ملازمة للجنس البشري وأن مهمة المسيح تخليص البشرية من الخطيئة فكان صلبه فداء للبشرية .

٣ - الطبيعة الإنسانية فيها استعداد للخير والشر معاً وعلينا تنمية الاستعدادات لعمل الخير من خلال مناهجنا ومن القائلين بهذا جمهور الفلاسفة وعلماء النفس والتربية وبه قال الإمام الغزالي وابن خلدون .

٤ - الطبيعة الإنسانية محايدة ليست خيرة ولا شريرة بذاتها وتعمل البيئة والتربية عملها في توجيه الإنسان للخير والشر ومن القائلين بهذا الرأي كانت ودور كايم وبرتراند رسل .

٥ - الطبيعة الإنسانية متغايرة فمنهم من يولد خيرا ومنهم من يولد شريراً ومنهم المتوسط بين هذين وهذا الصنف الأخير هو القابل للتعديل دون الصنفين السابقين ، ومن القائلين بهذا الرأي جالنيوس (١).

ولقد جلى لنا الماوردي أغراض جميع الموجودات وغاياتها ، فما هي ماهية الخير والشر عنده ، وما الغاية منه ؟

ذلك ما يبينه الماوردي حين يقرر أن الإنسان من حيث هو إنسان يختص بأفعال وقوى وملكات ، بها يكون تمام إنسانيته ، وكمال فضائله ، وهي الأمور الإرادية التي تتعلق بها قوة الفكر والتمييز والنظر فيها يسمى الفلسفة العلمية فكل من كان تمييزه أصح ، وروايته أصدق ، واختياره أفضل ، كان أكمل في إنسانيته ومن ثم فالخير عنده ، ما يبلغ به الكائن المريد غاية وجوده أو كمال وجوده .

فالغرض المقصود من وجود الإنسان إذا توجه إليه بكل أعماله وجعل الهدف الذي تصوب إليه أفعاله الإرادية هو الذي يجب أن يسمى به الإنسان خيراً أو سعيداً ، أما من عاقه عن الوصول إلى ذلك الغرض من عوائق أخرى فهو الشرير الشقي فالخيرات إذن هي : الأمور التي تحصل للإنسان بإرادته وسعيه في الأمور التي لها أوجد الإنسان ومن أجلها خلق ، والشرور هي الأمور التي تعوقه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله وانصرافه .

ويرى الماوردي أن الناس منهم من هو خير بطبيعته وهذا الصنف من الناس لا يصير إلى الشر بحال من الأحوال وهذا قليل في الناس ومنهم من هو شرير بطبعه وهو لا يصير إلى الخير بحال وبين هذا وذاك قوم على استعداد إلى الخير فينتقلون إذا تعهدوا بالتربية والتهذيب أما إذا خالطوا أشراراً فاسدين فإلى الشر مصيرهم وإلى الغواية طريقهم .

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق : لابن مسكويه ص ٤١ – ٤٢ ، وانظر الأخلاق في الإسلام ، د/ كايد قرعوش وآخرين ص٤٤ ، ط أولى سنة ١٤٢٠هـ دار الناهج عمان – الأردن .